شعراء التبشير القومي في العراق
- عبد الغني الجميل أنموذجاً -

أ.م.د. يونس عباس حسين
الجامعة المستنصرية–كلية التربية الأساسية

مدخل:

شاء القدر أن تكون الأمة العربية أمة شعر، والشعر خاصة شعر أولى في كل منعطف وعندما تظلم العصور، (وفي ظلمات القرن التاسع عشر أشرقت أضواء أدبية وشعرية تؤكد مخاض الأدب القومي في البلاد العربية بعامة، وفي العراق بلد العروبة والحضارة العربية بخاصة)[1]، وكان الشعر سباقاً دائماً في النضال والتعبير عن هموم الأمة لتنهض من غفوة أو تستوي بعد كبوة، وفي الوقت نفسه كان من المستحيل على الشعر الذي عاش فترات انحطاط وركود القرون الماضية منذ أن بدأ الضعف يدب في كيان الأمة العربية في أواخر الدولة العباسية وبدأ العرب يفقدون استقلالهم وأخذ الوعي القومي في التدهور والانحلال، أن يعبّر عن ضرورة الإحساس القومي للأمة ولم ينزع ذلك المنزع إلاّ حينما تعرض وجودها إلى التهديد والى عوامل عديدة تريد طمس هويتها وهدم كيانها، فتحركت عوامل المقاومة في روح الأمة العربية وعقلها وجسدها، وسلكت طريق النضال للخروج من المأزق ومواجهة الخطر والتصدي لمحاولات الأعداء في إنهاء وجودها. وهذا الشعر بدأ يظهر مع كوكبة مهمة من شعراء القرن التاسع عشر، هؤلاء الشعراء الذين جسدوا من خلال مواقفهم المناهضة للسلطات الحاكمة عمق وعيهم القومي وأصالة انتمائهم إلى الأمة العربية، تلك المواقف التي تدعو إلى نهوض العرب والكفاح من أجل الاستقلال والتحرر ويقف على رأس هذه الكوكبة. الشاعر عبد الغني الجميل.

هذه الكوكبة* من الشعراء التي ظهرت في فترة حالكة محاصرة بالتتريك مهددة بالخطر الأجنبي من الخارج والجهل والفقر والتفسخ الأخلاقي ومشاكل اقتصادية واجتماعية متشابكة في الداخل رأت في الاحتلال الأجنبي سبباً لحالة التردي والتخلف التي يعيشها أبناء قوميتهم وربطت استقلال بلادهم بذلك الاحتلال، وأكدت أن يتولى أبناء

---

[1] السحرتي، مصطفى عبد اللطيف (التيار القومي في الشعر العراقي الحديث وأشهر أعلامه) في: مجلة الكتاب، العدد الحادي عشر، السنة الثامنة، تشرين الثاني، ١٩٧٤، ص٥٥.

* ممثل حركة أدبية من أعضائها: أبو الثناء الالوسي (١٨٠٢–١٨٥٣) وعبد الغفار الاحوس (١٨٥٠–١٨٧٤) والشاعر عبد الباقي العمري (١٧٨٩–١٨٦١) وصالح الكواز (٨١٨–٨٧٣) وصالح القزويني (١٧٩٤–١٨٨٣) والشاعر احمد الشاوي وجعفر الحلي.

العرب مقاليد الأمور ليعيدوا مجد العرب الخالد وعزهم المجيد[١] ودعت إلى الكفاح والمقاومة لتحقيق أهدافهم وتخليصهم من الحكم الأجنبي، فعبرت عن شعور أبناء قوميتهم وتميزهم عن سواهم في الخصائص والغايات وجسدت في حقبة من تاريخ الأمة العربية المثل العربية وخصائص العروبة والإسلام وضربت مثلاً على صفاء العنصر العربي وبقائه عبر القرون الطويلة.

ثورة عبد الغني الجميل وأبعادها القومية:

تظافرت عوامل عدة في تهيئة الجو لاندلاع ثورة عبد الغني الجميل مفتي بغداد منها الداخلية والخارجية، أما العوامل الداخلية فتتمثل في الوعي الذاتي الذي يكمن فيه أسس هوية الأمة ومنبع قوتها، يكمن هذا الوعي الذاتي في النفس البشرية التي تنطوي على حب غريزي لأبناء الأمة الذي يقوى عند بعضهم فيتخذ موقفاً إيجابياً ويضعف عند آخرين فيتخذ موقفاً سلبياً فلا يطالب بأي حق سياسي، وقد اتخذ الوعي الذاتي عند عبد الغني الجميل موقفاً إيجابياً عندما ربط التخلف والظلم والاضطهاد بالتسلط الأجنبي وطالب برفع الظلم والتعسف عن قومه وتعدى ذلك إلى المطالبة بأحقيتهم بالحرية والاستقلال وان يعيشوا حياةً كريمة بعيدة عن الأجنبي المغتصب وأما العوامل الخارجية فتتمثل في التحديات التي تعرض لها الوطن العربي، وبضمنه العراق المتمثلة بالسياسة التركية طوال الحكم التركي للعرب والتي استهدفت كيان العرب وتاريخهم وحضارتهم، فضلاً عن سياسة الولاة المبنية على القمع والاضطهاد، وتدهور الأحوال في جميع مرافق الدولة، فعمّ العراق التأخر والفقر والجهل فـ(خلقت ثيابه بل نتن لحمه وشحمه وإهابه، فغدا جيفه يشق نشق ريحها المرائر واستولى عليه مَن يأبى أن يلوكه القلم بشدقيه)[٢].

ويفترض الدكتور عبد العزيز نوار عاملاً جديداً في ثورة المفتي عندما يرجع بعض دوافعها إلى وحي الفتح المصري لبلاد الشام ونتيجة التجاوب مع أهداف ابراهيم باشا ابن محمد علي في ضم العراق إلى دولته الموحدة التي يسعى إلى إنشائها فهو يقول:

"على ان الانتصارات المصرية في الشام (١٨٣١-١٨٣٢) كانت أكبر دافع لعبد الغني في إعلان ثورته. ولدينا من الوثائق مايكشف عن ان أهل بغداد كانوا على استعداد لفتح أبواب العراق بأسره لا أبواب بغداد فقط لإخوانهم عرب مصر. كان أهل بغداد في

---

[١] الشواف، عبد السلام: حديقة الورود (مخطوط)، مكتبة النجف، بغداد، الورقة: ٩٠.

[٢] الالوسي، محمود شكري: المسك الاذفر: ١٢٦-١٢٩.

فرحة كبرى عندما علموا بأن الشام تحرر من حكم الولاة العثمانيين ولم يكن عرب العراق يعرفون كثيراً عن محمد علي والي مصر وإنما كانوا يعرفون الكثير عن مصر والمصريين وعن أصالة العروبة في مصر وعن تفوق الحضارة العربية بها، فكانوا خلال نشوتهم بتلك الانتصارات المصرية يفخرون بجيش مصر العربي ويبدون دهشتهم بالفلاح المصري الذي ترك فأسه- الذي عاش عليها فقط قروناً طويلة- إلى المدفع والى الشراع والى الآلة والى الدراسات العالية أدهشتهم رجولته في ميدان المعركة واتقانه للتشكيلات العسكرية بسرعة عجيبة، إن هذه النقلة ليست في الواقع نقلة فجائية وليست من عمل رجل واحد. وإنما هي تلبية لتطور عام كان يدفع مصر نحو الدور الذي يجب أن تلعبه في تحقيق الهدف الطبيعي الذي كان تتجه اليه البلاد العربية وهو توحيد البلاد العربية تحت حكومة واحدة، هذه المشاعر التي لم تكن واضحة من قبل وظهرت جلية عندما كسبت القوات المصرية انتصاراتها الاولى على ارض فلسطين سنة ١٨٣١"[١].

استطاع المفتي عبد الغني الجميل أن يحول نضال القوى العربية المبعثر في العراق إلى حركة نضال وطني وتمكن من تجميع القبائل وتوحيد نضالها فأعلن ثورته في الجانب الشرقي من بغداد في ٢٨ مايس سنة ١٨٣٢م. في الوقت نفسه "كانت العشائر التي لبت نداء الثورة تستعد لمحاصرة المدينة ومد يد المساعدة للثوار داخلها"[٢] وحاول الجليليون في الموصل الاستفادة من الوجود المصري في الشام وطموحات ابراهيم باشا فأعلن زعيمهم يحيى الجلبي انضمامه مع القبائل العربية في العراق إلى جانب مصر لتخليص العراق من الحكم العثماني وكان محمد علي والي مصر متفائلاً بثورة العراقيين هذه وقال في احدى مكاتباته:

"إننا فتحنا قلعة حلب واستولينا على الشام وأهل بغداد طردوا الوالي المنصوب عليهم من طرف الدولة العثمانية وأقاموا من بينهم والياً إيذاناً بالانضمام إلى مصر"[٣].

---

[١] نوار، الدكتور عبد العزيز: (ثورة ١٨٣٢ في العراق) في: مجلة الهلال المصرية، العدد الثاني، السنة ٧٢، شباط ١٩٦١، ص١١.

[٢] نوار، الدكتور عبد العزيز: تاريخ العراق الحديث، ص٤٥٢.

[٣] نوار، الدكتور عبد العزيز: (ثورة ١٨٣٢ في العراق) في: مجلة الهلال المصرية، العدد الثاني، السنة ٧٢، شباط ١٩٦١، ص١٢.

ويلاحظ أن محمد علي لم يقل بضم العراق إلى مصر وإنما قال (بالانضمام إلى مصر) ومعنى هذا انه كان أكثر ثقة بوعي الشعب العربي في العراق بالوحدة هدفاً مشتركاً وتطلعهم للخلاص من الحكم التركي. وقد جسد تلك النظرة الشاعر صالح القزويني البغدادي (١٧٩٤-١٨٨٣) الذي تمنى للعراق حاكماً مثل محمد علي حيث قال:

أنصف أهل العراق في ملك مجلياً عنهم دجى الكرب
محمد فعله لعلي ومن تخشى المنايا من جيشه اللجب
ملك يكسب العلا مدخر كنزا من الحمد الا من النشب[١]

زحف الثوار على سراي الوالي واشتبكوا مع رجال القوات المسلحة ودارت معركة طاحنة قتل فيها عدد من رجال الوالي ثم هاجم الثوار بيت الوالي نفسه وحاولوا اخراجه الا انه كان قد فرّ ناجياً بنفسه.

ثم عاد ليصدر أوامره إلى حظائر جيشه وسراياه، فتوزعت على الأحياء والمحلات ثم قامت مدفعيتها بقصف مراكز الثورة بوحشية وقسوة وكان بين البيوت التي قصفت بيت المفتي الثائر الذي التهبت النيران مكتبته الثمينة وكانت تضم اكثر من سبعة آلاف كتاب[٢] ثم القي القبض على زعيم الكرخ أبو الثناء الآلوسي الذي كان قد شارك بهذه الثورة وسجن بدار نقيب أشراف بغداد[٣]، وقد تمكن قائد الثورة وبعض رجالها من الفرار وبذلك أخمدت هذه الثورة التي وضع عرب العراق أمانيهم فيها وتطلعوا من خلالها للخلاص من الهيمنة الأجنبية المتمثلة بالحكم العثماني.

وضوح الفكرة القومية عند الشاعر عبد الغني:

عاش المفتي بعد فشل الثورة بعيداً عن مجالات العمل السياسي: ولكن كانت تضطرم في صدره آلام قومه وتثور فيه عروبته. وكان فشل الثورة قد ساعد على نمو حركة أدبية عربية موجهة ضد السلطة الحاكمة[٤] تتناسب مع صراحة الأهداف السامية التي ناضل من اجل تحقيقها زعماء حركة المقاومة العربية في العراق. (فكانت على الباغي الدائرة، ومقارعة الأدباء بئس المغنم، شوشوا عليها أمرها وكشفوا عن أهل الزيغ في

---

[١] القزويني، صالح: ديوان.

[٢] الالوسي، محمود شكري: المسك الاذفر: ١٢٨، والغراوي: تاريخ العراق، جـ٢، ص١٤.

[٣] البصير، نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر: ٢٢٢.

[٤] نوار، تاريخ العراق الحديث: ٤٥٣.

سوء إدارتهم وعن محاربتهم في الخفاء فأظهروا عداءهم لرجال السلطة والمتزلفين لهم)[١]. ولاشك في ان تلك الحركة الأدبية النشطة سارت جنباً إلى جنب مع النهضة القومية، فهما صنوان لايفترقان وشعارهما اعادة المجد القديم[٢].

وكان هذا الشعار قد جسّده أدباء الأسر العربية في العراق، من أسر الآلوسي والجميل والحيدري والسويدي والشاوي، حافظوا على لغة العرب واهتموا بالتراث الحضاري ووضعوا مؤلفات عن أدباء العرب وشعرائهم[٣] فخدمت تلك الحركة الأدبية القومية العربية حتى حافظت على لغة العرب من طغيان اللغة التركية والفارسية وبذلك حافظت على عروبة العراق.

ويشتد الوعي القومي العربي بروزاً في نتاج الشاعر عبد الغني الجميل كلما ازدادت السلطة الحاكمة بطشاً وقمعاً في مواجهة مطالب العراقيين، وازداد هو نضالاً. وقد لمسنا جرأة وصراحة واضحة في موقفه الشعري أزاء الحكم العثماني وهذا ليس غريباً على شاعر ثائر قضى حياته في خدمة أبناء قومه بعد أن رأى عزهم قد أهين وكرامتهم قد استبيحت، فعبر بجرأة واضحة عن تطلعات أبناء قومه وأمانيهم في التحرر والاستقلال والخلاص من الحكم التركي المتسلط على رقابهم، باعثاً في نفوسهم النخوة العربية وداعياً قومه إلى ان يتحسسوا مايدور حولهم ومايراد لهم من اجتثاث ومسح لعروبتهم وتاريخهم ثم يدعوهم بصراحة إلى الثورة على هذا الحكم الأجنبي الذي لايمت اليهم بأية صلة قومية.

وتتنامى الفكرة القومية وبتصاعد الوعي القومي ويتأكد اقتراب معنى (العروبة) و(النضال) من بعضها البعض في شعر عبد الغني الجميل الذي قاد انتفاضة واسعة في بغداد ضد الحكم العثماني– وهي واحدة من الانتفاضات العديدة التي قام بها عرب العراق في بغداد والبصرة والموصل والنجف وكربلاء والشامية والحسكة (الديوانية).

ويلاحظ من قراءة قصائد الشاعر انه قدم النضال على كل شيء ولاشك ان هناك علاقة وثيقة بين النضال ضد الحكم الأجنبي والوعي القومي، ولايمكن أن نتصور انّ هناك حديثاً عن النضال الوطني والقومي في الشعر في غياب الوعي الوطني أو القومي،

---

[١] العزاوي، عباس، ذكرى أبو الثناء الالوسي: ٦٢.

[٢] سعيد، أمين (الادب والأدباء في العراق) في: مجلة الهلال المصرية، م١، ج١٠، ص٦٥–٦٩.

[٣] محمد: شمامة العنبر والزهر والعنبر (مخطوط): ٩–١٢ وأخبار الوالد وبنيه الأماجد (مخطوط): ٢٧–٣٠.

والشاعر حين يفتخر بقومه ويشيد ويعتز بهم فلأنهم يتميزون عن غيرهم بصفة النضال ومقارعة الظلم والتسلط ولأنهم لايرتضون الذل والهوان ولأن حوادث الدهر لاتثن من عزائمهم بل على العكس زادتهم قوة وصلابة وو عندما يدعو قومه إلى طلب المجد يدرك ان تحقيقه لايكون بالتمني وانما بالفعل أي النضال الذي هو انعكاس للشعور القومي الذي بعده الطريق لتحقيق اهداف العرب في التحرر والاستقلال:

فهبهم على المجد الأثيل تسنموا أما يعرفون المجد بالقول لايبنى
وما المجد إلا دولة وحفاظها صليل المواضي البيض والسمر اللدنا[1]

وفي الوقت الذي يدرك فيه الشاعر حقيقة تميز العرب عن بقية القوميات بملامحهم المستقلة وعاداتهم وتقاليدهم التي لايمكن ان تلتقي مع العنصر الغريب والمتسلط عليهم يدرك حقيقة أخرى وهي تفرّق كلمة هذه القومية وتجزؤها ضمن وحدة النظام السياسي العثماني:

ألا نخوة منهم فيصحوا إلى الذي ابادى سبأ قد غادرت ذلك المغنى[2]

وبعد أن يؤكد الشاعر تلك الحقيقة في حقبة عصيبة من تاريخ الأمة العربية يعرج على المتقلقلة نفوسهم والغاصين في تحولهم وانتمائهم من أبناء وطنه الذين لم يروا ماكان يراه في وجوب التصدي للاحتلال العثماني وما يلحقه ذلك الاحتلال بالبلاد من تدهور وتخلف وظلم واستبداد، فشخصهم وعراهم وكأنه كان يميز منذ وقت مبكر بين مفهومين للعربي اولهما ذلك المهادن للسيطرة الأجنبية والمتمسك بالرابطة الدينية وحدها والمستكين لقيم العصر التقليدية والمتمسك بقدسية العلاقة العثمانية، وثانيهما– ذلك الانسان الجديد المتبرم من الوجود الأجنبي حتى لو كان مسلماً، الداعي للقوة صراحة والمطالب بحقوق سياسية تتلاءم مع دور أمته ومكانتها الحضارية[3] ثم انه بتوجيه الشعر إلى هؤلاء المارقين والمريقي ماء وجوههم للاجنبي كأنه يؤدّب اللاحقين بهم:

ألا دافع عن قومه بغي ظالم إذا فقدوا في الحرب من ينطح القرنا
ألا مبلغ عني سراة بني الوغى وأقيال عرب كيف صبرهم عنا[4]

---

[1] الاخرس، عبد الغفار: (مجموعة عبد الغفار الأخرس): ٢٤.

[2] الاخرس، عبد الغفار: (مجموعة عبد الغفار الأخرس): ٢٤.

[3] عبد السلام، الدكتور عماد: (الجمعيات العربية وفكرها القومي): ٨.

[4] الأخرس، عبد الغفار: (مجموعة عبد الغفار الأخرس): ٢٤.

وبذلك ألقى مسؤولية تدهور البلاد وكل مايحل بها من جور واضطهاد وتأخر على تلك الفئة العربية التي هادنت الأجنبي وخدمته بذل وخنوع، فالمواطن العربي المتخاذل الذي يخون الوطن ومصالح الأمة العربية والذي يريق ماء وجهه في سبيل منصب أو جاه والمتقاعس عن تأدية واجباته تجاه أمته هو المسؤول الحقيقي عن حالة التدهور والضعف والتمزق التي تصيب البلاد.

وقد وجدت هذه الفئة العربية المارقة والممالئة للأجنبي من يعبر عن أهدافها من الشعراء. ووضعت مقدراتها في خدمة الأجنبي وجندت ألسنتهم للدفاع عن أسيادها الأجانب وبالتالي كرست للاحتلال (لا عن عقيدة ورأي وإنما بدافع التزلف واجتلاب النفع)[١].

لم يكتف عبد الغني جميل بتسخير شاعريته لتأصيل الإحساس القومي بالتحريض على الثورة أو بالتغني بأمجاد أمته وتاريخها وتراثها بل لاحق الانتماء القومي من كل جوانبه وكتب عن العرب المارقين الذين صفقوا للأجنبي الطامع بأرضهم، ومثلما كان عنيداً مقاتلاً في إبراز نسبته وصراحة عروبته كان ساخراً متهكماً، يطلق على اولئك المترددين بين عروبتهم وغربتهم وبين ولائهم لأنفسهم وضياعهم:

أجول بطرفي في العراق فلا أرى من الناس إلا مظهر البغض والشحنا
فخيرهم للاجنبي وقبحهم على بعضهم بعضاً يعدونه حسنا[٢]

إنّ العروبة عند الشاعر ليست مجرد موقع تحتله بل هي انتماء واحساس بنبل هذا الانتماء في كل الظروف وكل المواقع، فنراه يفتخر بعروبته فخر العربي الأصيل لا المتهافت الذليل:

أجامل أقواماً حياء وعفة فيزعم قوم اننا منهم خفنا
واسكت بقاءً لودّ علمته وعندي مقال يقصم الظهر والبطنا
صحائف عندي جمة قد طويتها ولو نشرت يوماً لعضوا لها الذقنا[٣]

يم يتوجه بشعره إلى قومه ليحرك فيهم النخوة والحمية العربية بعد صمت طويل:

أنادي ومالي من سامع وهل يسمع القول من في صمم
أقول وقومي أجابوا بلا وما من مجيب لنا في نعم

---

[١] الدقاق، الدكتور عمر: نقد الشعر القومي: ٦٠.

[٢] الأخرس، عبد الغفار: (مجموعة عبد الغفار الأخرس): ٢٥.

[٣] المصدر السابق: ٤٧.

إلـــى كـــم نراعـــي الخســـيس الـــدني ونرعـــــى لـــــه حرمـــــة كـــــالحرم[١]

ولكنه رغم حالة التردي التي تعيشها بلاده لا يشعر بالضعف والاحباط، بل يهدد خصومه ويدعو أبناء قومه إلى الثورة لتخليص البلاد من الحاكم الأجنبي:

وعصـــبة لـــؤم قـــد تنـــاجوا لحربنـــا فيـــا ويحهـــم مـــاذا يلاقونـــه منـــا

ألا مرشـــد مـــنهم عـــن الغـــي قومـــه فيـــوقفهم منـــه علـــى الســـنن الأســـنى

وشعر عبد الغني يمتاز بميزة مهمة وهي التفاؤل رغم الوجع والفرح رغم الحزن لأنه ينظر بعين العربي المؤمن برسالته إلى مستقبل الامة المشرق:

وقـــد يـــورق الغصـــن بعـــد الـــذبول وقـــد يســـفر الصـــبح بعـــد الظلـــم

وقـــــد تنجلـــــي ظلـــــم الحادثـــــات إذا مـــــا ظـــــلام الخطـــــوب إدلهـــــم[٢]

نشم في هذين البيتين رائحة الزمن القادم المسكون بالفرح والاشراق لأنه يستند إلى أصالة أمته وعراقتها وقدرتها على إحداث التغيير والنهوض بعد أي كبوة.

هذا ماكان يسعى اليه الشاعر... إيمان مطلق بقدرة أمته على بعث ذاتها ثانية.

وبعد هذا التفاؤل المشوب بالأمل بغد عربي مشرق نجدده يجرك بحس قومي أصيل مكامن النخوة العربية لأبناء وطنه للثورة على المحتلين، ثورة تختلط فيها صوت السيوف بأصوات قذائف البارود وهو معنى جديد يؤكده الشاعر أي معنى (الثورة المسلحة):

ومـــا المجـــد الاّ دولـــة وحفاظهـــا صليل المواضي البيض والسمر اللدنا[٣]

إلى أن يقول:

إلـــى كـــم نراعـــي الخســـيس الـــدني ونرعـــــى لـــــه حرمـــــة كـــــالحرم[٤]

ويؤكد الدعوة إلى (الثورة المسلحة) بقوله:

ومـــا المجـــد إلا دولـــة ورجالهـــا اســـود الـــوغى والســـمهرية غيلهـــا[٥]

---

[١] المصدر السابق: ٢٨.

[٢] الاخرس، عبد الغفار: (مجموعة عبد الغفار الأخرس): ٢٦.

[٣] المصدر السابق: ٢٨.

[٤] الاخرس، عبد الغفار: (مجموعة عبد الغفار الأخرس): ٢٨.

[٥] المصدر نفسه: ٥٥.

ثم يذكر أبناء قومه بأن بلاده سليبة وليس له فيها مكان لا في الكرخ ولا في الرصافة التي تضم مقر الوالي وموظفيه وجنده وعوائلهم ومقراً لإقامة الجاليات الأجنبية:

فمالي في الكرخ من مسكنٍ ولا في الرصافة مأوى العجمِ[١]

وفي المعنى نفسه:

والكرخ أقوى وقد جفت مشارعه وصار مأوى رعاة الشاه والبقر[٢]

ويزداد غضباً وحنقاً على الأجنبي عندما يرى أبناء قومه لايرتقون إلى مستوى المسؤولية والدفاع عن الوطن وإنما انشغلوا عنه بالشقاق والتشاحن، وظهرت من بينهم فئة وضعت يدها بيد الأجنبي، فكانت سبباً يضاف إلى أسباب فشل ثورته التي وضع العراقيون آمالهم فيها، فكانت تلك الفئة الممالئة للأجنبي بمثابة الثغرة التي امتدت من خلالها أيدي الأجنبي المدمرة والتي استطاعت ان تقضي على الثورة، فيقول:

وكنت أظن بقومي الوفاء فخابت ظنوني وحلّ الندم[٣]

وبعد أن خذله قومه وفشلت ثورته، قرر أن يرحل عن بغداد هذه البلدة الواسعة الفسيحة، فأخذ يجوب الصحارى والفيافي والوديان بعيداً عن العيش الرغيد في بغداد ورافضاً لمغريات الوالي علي رضا الذي لم يكن له بد من أن "يستجلبه ويوفيه مراده ومطلبه واقطع له الاقطاع الجسيمة وأجرى عليه الجزيات العظيمة فلم يقبل تغمده الله برحمته من ذلك شيئاً ولم يأخذ مما هنالك كلاً ولا جزءاً"[٤]، وهكذا يرفض محاولات علي رضا باستمالته وجلبه إلى بغداد ويرفض كل ماتقدم له من إغراء واضعاً قضية بلده فوق الاعتبارات الأخرى.

إن ثورته وإن تمكنت الأيدي الأجنبية من إفشالها إلا أنها لم تنته بعد فقد بقيت في أعماقه إلى أن تجد لها الوقت المناسب، لهذا أخذ يعيد تنظيم بنائها من جديد فراح يبحث عن قوة جديدة يستطيع بها ان يقوض النظام الأجنبي الحاكم، وأخذ يدعو الرجال من العشائر العربية ويلتقي بزعمائها موضحاً لهم مايدور حولهم وما وصلت اليه حالة البلاد من تردي وتأخر وما يقوم به الولاء من اضطهاد للعنصر العربي وإذلاله:

---

[١] المصدر نفسه: ٢٨.

[٢] الالوسي، عبد الله بهاء الدين: الروض الخميل (مخطوط): ٢٠٧.

[٣] الاخرس، عبد الغفار: (مجموعة عبد الغفار الأخرس): ٩٨.

[٤] الالوسي، محمود: المسك الاذفر: ١٢٨.

أميم دعيني أجوب الفلاة فأني وعينيك عالي الهمم
أما تعلمين بأني أمرؤ أبى على الضيم مهما ألم
وإني الوفي الذي تعهدين إذا ضيع العهد أهل الذمم
وكنت أظن بقومي الوفاء فخابت ظنوني وحل الندم
وكم لي على الكرخ من وقفةٍ تسيل دموعي بها كالديم
اسأل أين الرفاق الكرام وأين الأعزة أهل الكرم
فلم أرَ من مجيب بها وأنى تجيب العظام الرمم[1]

وفي قصيدة أخرى نظمها سنة ١٨٥٠م يصور الشاعر –بحس قومي– نفوره من سوء حالة العراق ومن الحكم التركي ومن الصمت المطبق على افواه الشعب، فيجدد دعوته الصريحة إلى الثورة ضد رموز الظلم والاستبداد، إن احساس الشاعر القومي وهو الحر الكريم بتردي حالة بلاده وهيمنة الأجنبي على زمام السلطة وابعاد العرب عنها أضف إلى ذلك عقله الناضج الذي تغذيه ثقافة عربية واسعة، هذه الأسباب دعته إلى التعبير عن آلام العرب وهمومهم وطموحاتهم وهدفه من ذلك تحرير البلاد وتخليص أبناء قومه من الحكم العثماني يقول:

ماذا أريد من العراق وكرخه بالعين ان شاهدته يقذيني
ومن البلية أنني في بلدةٍ فيها ارتقى للمجد كل رعين
ماخلت أيامي تكون كما أرى حتى بليت بغادر وخؤون
وإذا المنازل بالكرام تغيرت فارحل بأنف شامخ العرنين
واختر لنفسك منزلاً فيه العلا فالحر لايرضى بعيش دونِ
فالموت عندي مثل رؤية معشرٍ قد بدلوا دنياهم بالدينِ
وإذا البلاد تغيرت بأهلها فاطوِ الفجاج شمالها بيمينِ
واركب متون الصافنات ولاتقل إن الهوى بجوانحي يعصيني

ويصل بثورته إلى درجة الشهادة... فإما حياة عزيزة وإما الموت:

فالنفس إما للثرى أو للعلا فانهض فعيش الذل للمسكين
وعزائمي لاتلتويها نكبة حتى أكون موسداً بالطينِ[2]

---

[1] الالوسي، محمود: المسك الاذفر: ١٢٨.

[2] الاخرس، عبد الغفار: (مجموعة عبد الغفار الأخرس): ٤٣.

ويتأجج غضب شاعرنا وتتفجر حماسته فيرتفع صوته مدوياً يستنهض قومه ويستحثهم على الالتفاف حوله، فيجعل منهم قوة متماسكة يستطيع بها تحرير وطنه وطرد الغاصب، الا ان بغداد واهلها قد خيم عليهم الصمت المهين واستكانوا للذل وحياة المهانة فيرسل قصيدته إلى أبي الثناء الالوسي الذي كان في استانبول سنة ١٨٥١م:

أيذهب عمري هكذا بين معشر ... مجالسهم عاف الكريم حلولها
وأبقى وحيداً لاأدري ذا مودة ... من الناس لاعاش الزمان ملولها
وكيف أرى بغداد للحر منزلاً ... إذا كان مفري الاديم نزيلها
ويسطو على آسادها ابن عرسها ... ويرقى على هام السماك ضئيلها
فما منزل فيه الهوان بمنزلٍ ... وفي الارض للحر الكريم بديلها
وأصعب ما ألقى رياسة ناقص ... مساويه إن عدت كثير قليلها
وما ساد في أرض العراقيين ماجد ... من الناس الا قدمها ورذيلها
فر عن بلاد طوحت لاترى بها ... مقيل كريم للعثار مقيلها

ونراه في سبيل رسالته التي آمن بها يجوب الصحارى ويقطع المفاوز بحثاً عن قوة من العرب يستطيع بها ان يهد كيان الحاكم الاجنبي وعندها تتحقق احلامه وآماله واحلام العرب:

عفا الله عني كم اجوب مهامها ... من الأرض يستاف التراب دليلها
لعلي ألاقي عصبة عيشمية ... فروع مناجيب كرام أصولها
يتم بها مجد رفيع ومنطق ... ويلبي عن الخيل العتاق صهيلها
متى يلثم اللبات رمحي وترتوي ... سيوف بأعناق اللئام صليلها
وحولي رجال من معد ويعرب ... مصاليت للحرب العوان قبيلها
إذا أوقدوا للحرب ناراً تأججت ... مجامرها والبيض ترمي نصولها

إن إدراك الشاعر لواقعة المرير، وسكوت قومه على ذلك الواقع وارتضائهم الذل والمسكنة يقوده إلى البحث عن مهرب وخلاص، فأهل المدن يعيشون حياة ترف ولين ولم يعد بهم أمل. أما أهل البادية والصحراء فهم الملجأ والأمل الذي يحقق به لأمته مايريده من عز وكرامة، وهنا يؤكد ماذهب اليه ابن خلدون في نظريته التي يقرر فيها بأن طبيعة

البدو تأبى الذل والمسكنة ولا ترضى بغير العز وعشق الحرية أما أهل المدن فيميلون إلى الخضوع والاستكانة[١]:

ومـــا العـــز إلا فـــي بيـــوت تلفهـــا عـــذارى وأبكـــار المطـــي حمولهـــا
تحـــفّ بهـــا مـــن آل وائـــل غلمـــة لهـــم صـــولة فـــي الحـــرب عـــالٍ تليلهـــا
عليهـــا رجـــال مـــن نـــزار وعـــامر مطـــاعين فـــي الهيجـــا كـــريم قتيلهـــا

والشاعر يرى في قبائل العرب رجالاً صناديد وقوة قائمة أيام المحن والشدائد ويرى التفافها حوله تعزيزاً للنصر والصمود وهو يزهو بها:

ومَـــن رام مجـــداً دونـــه جـــرع الـــردى شـــكته الفيـــافي وعرهـــا وســـهولها
ومـــا المجـــد إلا دولـــة ورجالهـــا أســـود الـــوغى والســـمهرية غيلهـــا[٢]

ويسجل عبد الغني جميل في قصيدة رائية بلغة خمسة واربعين بيتاً، أرسلها إلى أبي الثناء الآلوسي عندما كان الأخير في إستانبول، حالة العراق المتدنية من جميع الحالات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والصحية، مما يعانيه أبناء قومه من ظلمٍ واضطهاد:

لهفـــي علـــى بغـــداد مـــن بلـــدةٍ قـــد عشـــعش العـــز بهـــا ثـــم طـــار
كانـــت لآســـاد الـــوغى منـــزلاً والخـــائف الجـــاني بهـــا يســـتجار
واليـــوم لا مـــأوى لـــذي فاقـــةٍ فيهـــا ولا فـــي أهلهـــا مســـتجار
واليـــوم قـــد حـــل بهـــا مـــن تـــرى فـــأنفر وإلا بيـــديك الخيـــار
حـــلّ بهـــا قـــوم وهـــم فـــي عمـــى مـــا ميـــزوا أشـــرارها والخيـــار
بـــارت بهـــا أســـنى تجاراتهـــا وهكـــذا عـــادة دار البـــوار
قـــد نعـــق البـــوم علـــى صـــدرها يصـــيح بالنـــاس البـــوار البـــوار
والكـــرخ قـــد أفقـــر مـــن أهلـــه مـــن بعـــد مـــا كـــانوا كـــورد البهـــار
مـــا ســـميت زوراء الا لمـــا لهـــا عـــن الرشـــد مـــن الأزورار
قـــد خلـــع النـــاس عـــذار الحيـــا فجـــار فيهـــا الوغـــد والحـــر حـــار
لايشـــتفي غـــيظ أخـــي نخـــوة إلا إذا جـــرّد بـــيض الشـــفار

ثم يقول والمرارة تعتصره:

---

[١] ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص٦٢.

[٢] الأخرس، عبد الغفار: الطراز الانفس: ٤٥-٥٥.

أيـــا شـــهاب الـــدين ياســـيدي قـــد هجـــم النـــذل علينـــا وغـــار
يانازحـــاً عنـــا ومـــا قـــد درى مـــن بعـــده ماقـــد جـــرى فـــي الـــديار[1]

لقد كانت ثورة المفتي ونضاله من اجل أبناء قومه مدعاة لتغني الشعراء وسرورهم فعبروا عن شجاعته وصفاته العربية الأصيلة التي لايفتخر بها العراقيون فحسب بل الأقطار العربية الأخرى أيضاً، فيقول محمد فهمي أفندي العمري:

قـد حـوى الفخـر بـه قطـر العـراق وزهـاً حسـناً علـى مصـر وشـام

كيف لا وهو أخو الفضل العظيم[2] وهكذا توضح لنا من خلال متابعتنا لقصائد الشاعر انه كان ثائراً على الحكم الاجنبي وداعياً إلى النضال دعوة مستميتة دون خوف أو وجل واضعاً مصلحة وطنه فوق كل اعتبار، إن ثمة غاية في شعره كان يسعى اليها، فهو حين ينظم قصائده الوطنية أو القومية لايرمي إلى إثارة الخواطر وإيقاظ الانفعالات فحسب، ولكنه كان يريد من وراء ذلك غاية أسمى وهي أن يحمل أبناء قومه على اعتناق مذهب سام وهو وجوب محبة الوطن وتقديمه على كل شيء وضرورة الدفاع عنه بجميع الوسائل (والشعراء وحدهم يستطيعون أن يتغنوا بوطنهم وأن يعلّموا الناس محبة الوطن)[3]. وقد اتسم شعره بسمةٍ جديدة وهي دعوته إلى "الثورة المسلحة" حيث رأى فيها الطريق الصحيحة لتحرير البلاد من الاجنبي المتسلط، وبناء حياة جديدة للعرب قائمة على أسس الحق والعدالة والحرية، واستطاع بشعره القومي أن يشخص الفئة العربية التي هادنت الأجنبي وخدمته على حساب المبادئ وعز العرب وكرامتهم، فوضع اليد على المسؤول عن تدهور البلاد وتأخرها واستمرار حكم الأجنبي فيها، وبذلك يميز ومنذ وقت مبكر بين معنيين للعربي: المهادن للأجنبي والرافض له، وهو حينما يشخص تلك الفئة الممالئة للأجنبي كأنه يحذر الباقين من الانزلاق في درك الخيانة، فكان يقوم بتوعية أبناء قومه ويحثهم على تحسس واقعهم المر وما يراد لهم من انهاء. وبذلك يعبر عبد الغني الجميل عن ضمير الأمة في حقبة عصيبة من تاريخها لم تتوفر لها اساليب التعبير الأخرى عن الوعي القومي بعد أن استطاع الحاكم الاجنبي المتفوق في العدد والعدة ومايستخدمه من سياسة اثارة الأحقاد العشائرية والصراعات المذهبية ليستطيع أن يضرب العرب بعضهم

---

[1] الأخرس، عبد الغفار: الطراز الأنفس: ١٢٣-١٢٤.

[2] الالوسي، عبد الله بهاء الدين: الروض الخميل (مخطوط- مكتبة المتحف: ١٤٧).

[3] مجلة الثقافة، العدد ٣، الحلقة الاولى سنة ١٩٣٦: ٢٧.

ببعض فيشتت قوتهم ويفرق كلمتهم وبالتالي يتمكن من القضاء على اية ثورة عربية، لقد تمكن الشاعر ان يربط في شعره فكرة الحرية والاستقلال والعيش بعز وكرامة بمقاومة الاجنبي والكفاح من اجل التخلص من ركائزه وبهذا، يتخذ الوعي القومي عند الشاعر طابعاً جديداً فكان في طلائع العمل القومي العربي وعدّ شعره أثراً خالداً في النضال القومي العراقي[١].

لقد استطاع الاستقراء الموضوعي لقصائد الشاعر الذي اعتمدته الدراسة ان يضع اليد على قضية مهمة لم يسبق اليها، وهي ان قصيدة قومية من المطلع إلى المقطع قد ولدت في القرن التاسع عشر على يد الشاعر عبد الغني الجميل، إنفردت بمعالجتها لمعاني الوعي القومي فحسب والتي عبرت عن تطلعات عرب العراق إلى الاستقلال والتخلص من الحكم الاجنبي الذي لايمت اليهم بأية صلة قومية. وبذلك عبرت عن موقف الشاعر بروح جريئة وبطريقة استفزازية جسدت المثل العربية الأصيلة وخصائص العروبة وحفزت عرب العراق للوثوب على أعداء العروبة.

إن استقراء تلك القصائد يثبت ان معاني الوعي القومي تستقل أحياناً عن غيرها من المعاني الشعرية الأخرى.

ويمكن أن تستشهد في هذا المجال بقصيدة عبد الغني الجميل التي مطلعها:

عـــلام الاقامـــة فـــي بلـــدة تعـــد بهـــا مثـــل حمـــر الـــنعم[٢]

وبقصيدة ثانية مطلعها:

لهفـــي علـــى بغـــداد مـــن بلـــدة قـــد عشـــعش العـــز بهـــا ثـــم طـــار[٣]

وقصيدة ثالثة في دمشق الشام:

قـــف بـــالمطي برملتـــي يبـــرين واحفـــظ فـــؤادك مـــن ظبـــا جيـــورن[٤]

وقصيدة رابعة مطلعها:

أيـــذهب عمـــري هكـــذا بـــين معشـــر مجالســـهم عـــاف الكـــريم حلولهـــا[٥]

---

[١] العزاوي، عباس: تاريخ الأدب العربي في العراق، جـ١: ٢٣٣.

[٢] الأخرس، عبد الغفار: مجموعة عبد الغفار الأخرس: ٢٧-٢٩.

[٣] المصدر السابق: ١١٣-١٢٥.

[٤] المصدر نفسه: ٤٢-٤٤.

[٥] المصدر السابق: ٤٥-٥٥.

إن وقوفنا أمام أي قصيدة من تلك القصائد تطلعنا على عمق الوعي القومي الذي يعتمد على فكرة (النضال والمقاومة) لتحقيق آمال العرب ونلمس في الوقت نفسه الجرأة والصراحة الواضحتين في موقفه الشعري أزاء الحكم العثماني لما يتضمنه من معاني الحماسة والنضال وبعث النخوة العربية والدعوة إلى التحسس بما يدور حول أبناء قومه وما يراد لهم من مسخ لعروبتهم وتاريخهم، ثم الدعوة الصريحة إلى الثورة على هذا الحكم الاجنبي الذي يسوم أبناء شعبه العذاب منذ أكثر من خمسة قرون، ولما يحمله هذا الشعر من روح عربية تأبى الرضوخ وتعبر عن انتماء الشاعر الحقيقي لتلك الأمة وفي الذود عنها والمطالبة باستقلالها وعيش أبنائها بعز وكرامة تحت ظل حاكم عربي من بينهم يحفظ لهم مجدهم وتاريخهم وحضارتهم.

مصادر البحث

المخطوطات:

- الالوسي، السيد عبد الله بهاء الدين، الروض الخميل في مدائح الجميل (عبد الغني الجميل)، مجموعة أدبية جمعها الاستاذ السيد عبد الله الالوسي ضمت ما قيل في عبد الغني جميل واولاده شعر ونثر لأدباء عراقيين عديدين، جمعها وعلق عليها: عباس العزاوي المحامي، (مخطوط-مكتبة النجف- بغداد) رقم (١٦٤٩٦).
- الشواف، عبد السلام، حديقة الورود في مدائح أبي الثناء شهاب الدين محمود (مخطوطة مكتبة النجف- بغداد رقم (٩٠)).
- القزويني، صالح، ديوان السيد صالح القزويني مع بعض قصائد ولده السيد راضي، جمع ابراهيم آل الشيخ صادق آل الشيخ يحيى رقم الفلم (١٠).

المصادر المطبوعة:

- الأخرس، عبد الغفار، الطراز الانفس في شعر الاخرس، مطبعة الشركة المرتبية، استانبول ١٣٠٤هـ.
- مجموعة عبد الغفار الأخرس، شركة التجارة والطباعة المحدودة ١٩٤١، جمعها: عباس العزاوي المحامي.
- الالوسي، محمود شكري، المسك الأذفر، مطبعة الآداب، بغداد، ١٢٤٨هـ/١٩٣٠م.
- الدقاق، الدكتور عمر، نقد الشعر القومي، اتحاد الكتاب العربي، دمشق، ١٩٧٨.
- العزاوي، عباس، تاريخ الأدب العربي في العراق، جـ٢، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٦١.

- ذكرى أبو الثناء الآلوسي، شركة التجارة والطباعة، بغداد، ١٩٧٨.
- نوار، عبد العزيز سليمان، تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٨.

الجرائد والمجلات:

- الخياط، جعفر، عبد الغني آل جميل المفتي الثائر، جريدة البلد، العدد ١١٨، الاربعاء ١٩٦٤/١/١١.
- السحرتي، مصطفى، (التيار القومي في الشعر العراقي الحديث وأشهر أعلامه)، مجلة الكتاب، السنة الثامنة، العدد الحادي عشر، تشرين الثاني ١٩٧٤.
- عبد السلام، الدكتور عماد، (الجمعيات العربية وفكرها القومي)، الندوة العلمية لتطور الفكر القومي يقيمها مركز دراسات الوحدة العربية للفترة من ٨-١٠/٥/١٩٨٥.
- نوار، الدكتور عبد العزيز، (ثورة ١٨٣٢ في العراق)، مجلة الهلال المصرية، السنة ٧٢، العدد الثاني، شباط ١٩٦١.